قصور منطقة النعامة- دراسة تاريخية ومعمارية
مغرار، تيوت، صفيصيفة – أنموذجا-

أ. مبخوت نصيرة
جامعة سعيدة
nmebkhout@yahoo.com

الملخص:

سنتناول في هذا البحث، دراسة تاريخية وأثرية وفنية لقصور منطقة النعامة، واخترنا قصور تيوت ومغرار وصفيصيفة كنماذج.

عاش ومر الإنسان بمراحل متعاقبة، وبعد الترحال والتجارب والظروف التي تعايش معها، لجأ إلى الاستقرار من أجل التواصل الاجتماعي بين الأفراد، وشيد المباني لتلبية متطلبات حياته وأغراضه الشخصية. بحيث توفر له الأمان وتقيه الحر والقر، رغم اختلاف أنماط ومواد البناء ، حسب توفرها من منطقة إلى أخرى. فالمسكن يتميز بالخصائص التالية: الموقع، والشكل المعماري، والافراد المقيمون فيه.

وتتوفر منطقة النعامة على إمكانات ثقافية وحضارية هائلة معترف بها على المستوى العالمي، منذ القدم وعبر تاريخنا الطويل. وتعتبر جبال القصور المكان الذي تتوفر فيه أغلب القصور القديمة، والنقوش الصخرية المتواجدة على الحدود الجزائرية المغربية، وبالضبط منطقة العين الصفراء غربا حتى ولاية البيض شرقا.

الكلمات المفتاحية: تاريخ المسكن، فن العمارة ، القصور ، النعامة، الزخرفة، تيوت، مغرار، صفيصيفة .

Abstract:

In our project, we will deal with a historical descriptive research about “El Ksour” of the region of Naama .we choose those of “Tiout”, ”Mograr” as models. Man lived different situations, in ancient time people used to travel .Through the situation and circumstances, man decided to settle for having more relationship between the members of the society. Although the huge variety en materials used for construction, people built their homes to satisfy their needs, to protect themselves from the heat of the sun and also to be more secure.

The characteristic of their habitats were: location, shape and people who lived inside. The region Naama is famous for its cultural heritage known in all the word then it becomes a world heritage Especially "ElKsour" mountains where you can find "ancient Ksour" ,engravings on rocks neur the borders between Algeria and Morocco, exactely in the town of "AinSefra" (west) to the east of "El Baydh".

Keywords: househistory, architecture, Elksour, naama, tiout, mograr, sfisifa.

المقدمة:

إن السكن يضم جملة من الاعتبارات المعقدة، تجمع بين المسكن والممارسات الاجتماعية في الحياة اليومية ، وهو يحمل معنى واسع في إطار كل العناصر المادية، والإنسانية التي تساهم في أطر العيش. ومن الناحية الجغرافية ،إنه النظام المجالي للمقرات السكنية، ويشكل جزء هام في ترتيب أشكال التوزيع السكني، من قرى، وسكنات فردية، وتجمعات سكانية[1] والسكن أيضا هو البناء الذي يأوي إليه الفرد ويشمل على الضروريات والتسهيلات والتجهيزات والأدوات والوسائل التي يحتاج ويرغب فيها الفرد[2]، والمسكن أكثر دقة من السكن ، وهو يرمز إلي الفردانية ، ويضم البيت والعائلة التي تشغله إلي جانب السكنات المجاورة .من الناحية الفيزيائية يفسر على كونه وحدة سكنية مكونة من سقف، تضم أفراد تجمعهم علاقات أسرية يشتركون في استعمالها، والتعايش فيها، وهو جزء من الممتلكات المادية ،ويتميز بالخصائص التالية: الموقع، و الشكل المعماري، والأفراد المقيمون فيه.

نشأت العمارة كمعرفة بسيطة في البناء ،وفي أبسط أشكال، ثم تطورت حتى كونت مجموعة من الفنون المعمارية المختلفة، وفن العمارة من أهم مظاهر الحضارة لأنها مرآة تعكس آمال وتطلعات الشعوب، وقدرتها العلمية وابتكاراتها، ومن الثابت أن العمارة كانت دائما الصورة الحية والصادقة لحضارة الإنسان، وتطوره وانعكاسا لمبادئه الروحية على حياته المادية ، من خلال تخليده للكتابات والنقوش الحجرية والزخارف المختلفة، وقد شمل الفن المعماري أنواع عدة من العمارة، حيث تفنن العرب والمسلمون في أشكالها، المدنية والدينية والعسكرية .

إذا ربطنا الانطلاقة الحضارية بالماضي، كان من المفروض علينا أن نقف عند المستوى العمراني، وحركة الإنسان داخل هذا المستوى وتفاعله مع المجتمعات المحيطة به، إن الحضارة

في نظر علماء الاجتماع، ولدت بميلاد العمارة ولا تنمو إلا بنموها فالإبداع الحضاري ولد من رحم المدينة. وإن معرفة الجانب العمراني للقصور مرهونة بالوقوف عند أسس ذلك العمران وكيفية تطوره ، والمواد المستعملة من أجل البناء محلية كانت أم إقليمية، فالحضارة مهما ارتبطت بعاملي المكان والزمان ،فهي في جوهرها إنسانية ليست حكرا على مجتمع دون آخر، أو عصر دون بقية العصور ، ما يدفع مقارنتها بأصول معمارية أخرى ، فالترحال والهجرات والعلاقات التجارية لها دور عبر التاريخ في نمو العمران.

- المسكـــــــــن التقليدي لمنطقة النعامة:

عاش ومر الإنسان بمراحل متعاقبة، وبعد الترحال والتجارب والظروف التي تعايش معها، لجأ إلى الاستقرار من أجل التواصل الاجتماعي بين الأفراد، وشيد المباني لتلبية متطلبات حياته وأغراضه الشخصية. بحيث توفر له الأمان وتقيه الحر والقر رغم اختلاف أنماط ومواد البناء حسب توفرها من منطقة إلى أخرى.

- البناء الخارجي للمسكن :

أ - تصميم البناء :شيدت المساكن على مساحة تصل إلى **400** م ^{2} وبشكل مستطيل وتتكون البيوت غالبا من طابقيين مبنية بمستوى منخفض نتيجة التفاوت في مستويات الأرض وذلك حسب الموقع باعتبار أغلبها شيد على سفوح الجبال بجانب الأودية للممارسة الزراعية وتربية المواشي مما يدل على أن اختيار أرضية تشييد المباني آنذاك لم يكن أبدا تلقائيا. وتظهر الجدران الخارجية للمساكن كلها تقريبا متساوية الارتفاع (حوالي 3م) وبذلك تبدو المساكن ملتصقة وملتحمة مع بعضها البعض (هذا ما يترجم مظاهر التلاحم والترابط الاجتماعي للسكان) كما تمتاز هذه المساكن بسمك جدرانها الداخلية والخارجية.[3] وهي مبنية على أساسات ذات عمق **60** سم إلى **1** م **50** إلى **80** سم مبنية بحجارة مكسوة بالطين، أما الأسقف فمدعمة ومرتكزة على دعامات دائرية ومستطيلة. والمداخل هي بحسب حجم البيوت وعدد الواجهات الخاصة بكل مسكن وأغلب المساكن القديمة بها بابان رئيسي وثانوي وهي مصنوعة من عوارض خشبية طويلة وعمودية تضاف إليها اخرى أفقية مثبتة بمسامير وبدون زخرفة، أما النوافذ فأغلب البيوت تنعدم فيها النوافذ الكبيرة المطلة على الخارج باستثناء بعض الفتحات الصغيرة للتهوية والإنارة، مربعة الشكل تقع أغلبها على

ارتفاع 2.5 م والتي تظهر بارزة في الجدران الخارجية للبيوت ، تطل على فناء المسكن أو توجد بالطابق العلوي.

ب- مواد البناء : بنيت المساكن القديمة بالحجارة المهذبة والطين ومنها ما بني بالطوب المكون من خليط متجانس من الطين (التبن والماء) ، وبعد فترة التخمر تصنع منه حبات الطوب بواسطة قالب مستطيل الشكل (20 سم x 30)، وبها تبنى الجدران الخارجية والداخلية للمنزل حسب التصميم المراد بناؤه إذ يتميز الطين بأنه مادة سهلة الاستعمال إضافة إلى ميزاته التي يوفرها ببناء عبر امتداد الزمن فله حسنات كثيرة أهمها أنه يعدل الرطوبة والهواء، إذ يملك خاصية امتصاص الرطوبة الهواء الزائد بسرعة ما يعني أن نسبة رطوبة الهواء في بيت مبني بالطين تبقى متزنة . وهذا يؤمن مناخا صحيا على مدار السنة، كما أنه يخزن الحرارة ويحتفظ بها في ليالي الشتاء ، وبالتالي فإن استعماله يساهم أيضا بالحد من تلوث البيئة ، والطين مادة جمالية أيضا للرسم والتشكيل الهندسي لمختلف الأشياء المراد تشكيلها وهذا ما جعله المادة الأولى في البناء والعمران عبر تعاقب الأزمنة .

أما المادة الأساسية في البناء القديم فهي الخشب المستخلص من النخلة والصفصاف والعرعار لصنع الأبواب والنوافذ وبعض الأعمدة ، وجريد النخيل والعرعار والقصب للتسقيف بشكل مائل وذلك يمد جذوع النخيل أو العرعار على جدران الغرف المراد تسقيفها ويصفف "الكرناف "بين هذه الجذوع ويوضع فوقها القصب أو الجريدة ونبات الرتم الملاط الطيني تسرب مياه الأمطار فيما بعد ، لسد الثغرات المحتملة ولتفادي التسرب وفي الأخير يوضع التبن والملاط الطيني فوق السطح المراد تسقيفه.

ت- الزخرفة : ما يميز السكنات القديمة هو قلة أو انعدام العناصر الزخرفة فيها وهذا راجع إلى بساطة الأهالي والبعد كلية عن كل مظاهر الترف والرفاهية، فالجمال لا يظهر في الزخرفة وإنما في انسجام البناء وتناسق أجزائه حتى أنه يبدو كتلة واحدة متراصة ومتلاحمة.

التهيئة الداخلية للمسكن :

بعد الدخول من الباب الرئيسى للمسكن توجد السقيفة وهي المجال الوسطي بين الخارج والداخل (2/2.80م) ومنها إلى باب ثانوي يؤدي إلى بهو المنزل غير مسقف له دور توزيعي، ويمينا دورة المياه (1.65 طولا و 90 سم عرضا) ، أما على اليسار مباشرة سلم (يؤدي إلى الطابق العلوي مؤدي إلى غرفة الضيوف (يصل طولها إلى 10 م والعرض إلى

قرابة 4 م) دلالة على السخاء والكرم ، وغرف أخرى ذات مساحة (4.90 طولا 2.60 م عرضا) وذلك حسب حاجة أفراد العائلة لذلك.

ومن البهو (الطابق الأرضي) توجد ثلاث غرف أو أكثر متوسطة المساحة كلها مزودة بأبواب خشبية (1.70 سم / 75 سم) ونوافذ (95 سم /1.70 سم) إضافة إلى المطبخ كمحتوى أساسي في أي مسكن مزودة بمدخنة وفتحات تهوية مطلة على بهو ذي مساحة أكبر من الغرف المستطيلة الشكل (9 م/2 م) وبجوارها حجرة مظلمة أصغر حجما للتخزين إضافة إلى البئر ودورة المياه، كما يوجد عادة سلم ثان خاص بأفراد العائلة يؤدي إلى سطح المنزل يخصص لأغراض شتى مثل تجفيف بعض المواد لتخزينها أو تجفيفها لوقت الحاجة وللنوم والمسامرة صيفا.

وعلى العموم فإن المساكن القديمة بالمنطقة رغم بساطتها والاعتماد على المواد المحلية الطبيعية في بنائها لا زال بعضها شامخا رغم الظروف المناخية التي واجهتها .لكن مع مرور الوقت فقد طرأ الكثير من التغير على نمط البناء باللجوء إلى مواد البناء الاصطناعية لسهولة استعمالها كما تغير النمط المعماري وفق التصاميم الحديثة والتي لا تراعي غالبا ثقافة الأسرة والمجتمع المحلي .

ويعرف القصر[4] لغويا بأنه النزل و سمي كذلك لأنه تقصر فيه الحرم أو تحبس و جمع قصر قصور و يعرف أنه ما شيد من المنازل و علا و بصفة أخرى هو بناية فخمة واسعة، كما يقصد أيضا بالقصر مقر الخليفة أو الحاكم وأفراد عائلته. وأطلق عليه في بداية العهد الإسلامي (2هـ/ 8م) "البلاط".

أما في الصحراء فيغلب على تسمية مدن الصحراء ومدن الواحات اسم القصر وهو لفظ شائع عند سكان الصحراء حيث تبنى على هضبات مرتفعة عن سطح الأرض وبه مجموعة من المساكن والمنازل الموحدة الشكل واللون محاطة بسور مزدوج ومرتفع تتخلله أبواب فوقها بروج مستديرة على جانبي مدخل القصر، كما أنها تعني حياة المدينة أو حياة الاستقرار حتى أن أهل البوادي كثيرا ما يطلقون اسم "القصوري" أو "المديني" على أهل الحضر.

- القصور الصحراوية العتيقة للمنطقة :

تتوفر منطقة النعامة على إمكانات ثقافية وحضارية هائلة معترف بها على المستوى العالمي، مند القدم وعبر تاريخنا الطويل، وتعتبر جبال القصور المكان الذي تتوفر فيه أغلب

القصور القديمة ، والنقوش الصخرية المتواجدة على الحدود الجزائرية المغربية ، وبالضبط منطقة العين الصفراء غربا حتى ولاية البيض شرقا.

ومن مميزات هذه القصور العتيقة ،ذات الطابع والشكل الهندسي الرائع، والمناسب لمناخ وطبيعة صحرائنا الجميلة ،وبساطة الانجاز المستعمل في بناء بيوت هذه القصور ،ومدى ملاءمتها وتحملها للبرد شتاء والحرارة صيفا.

وفي هذا الإطار تتوفر المنطقة على عدة قصور من بينها :

ا/ قصر مغرار التحتاني :

يقع القصر بمغرار التحتاني (قلعة الشيخ بوعمامة حاليا) في منطقة الأطلس الصحراوي وبالضبط بجبال القصور (هذه الجبال التي تمتد بين مدينة "فيقيق" المغربية ومدينة البيض، وهي تشكل حاجزا بين الصحراء الصغيرة والصحراء الكبيرة)[5] الواقعة على بعد **150** كلم عن مقر المنطقة، يبعد قصر مغرار التحتاني ب **10** كلم شرق مغرار الفوقاني و **05** كلم على الطريق الوطني رقم : **06** المؤدي إلى (بشار) ، تحدها شمالا كل من بلدية تيوت وعين الصفراء ومن الجنوب ولاية بشار، شرقا عسلة وغربا جنين بورزق وهي على الضفة الشرقية لواد مغرار الذي يتسم بجفافه طوال السنة ما عدا بعض الممرات التي يجري فيها عند سقوط أمطار موسمية والتقائه مع واد السلام في الجهة الغربية مدعم من طرف واد تيوت ، يشكل بذلك واد أكبر يدعى بواد "الناموس" والذي يصب في العرق الغربي الكبير (جنوب الصحراء الجزائرية).

- المساكن:

المساكن في قصر مغرار التحتاني مبنية بطابق أرضي أو بطابقين أرضي و علوي واحد **RDC .R+1** و المادة المستعملة في البناء هي الطوب حيث يذكر في هذا الإطار روسي (إيتوري) "تتاثر الأنماط المعمارية بمستوى دخل الفرد و الإزدهار الاقتصادي وتظهر سمات ثراء المجتمع غالبا من خلال العمارة...حيث كانت بيوت المدينة الإسلامية قديما بسيطة في البناء ذات دور أو دورين ومشيدة باللبن"[6]

- تخطيط المسكن:

باب المسكن مصنوع من جذوع النخيل بقياس في الارتفاع يصل إلي 2م وقياس في العرض يصل إلي 1م.30سم، بعد الدخول يقابلنا المرحاض مباشرة وهو مبني على عتبة مرتفعة على سطح الأرضي للمسكن بثلات أو أربع درجات.

بعد المرحاض يقابلنا الفناء ، كما يسمي وسط الدار ،"الفناء يفصل المرحاض و الإسطبل عن بقية الغرف في الطابق السفلي دائما وهي مقسمة إلى مدخل يسبق غرفة أو غرفتين أين يتم وضع المؤونة وحفظها."

وفي الفناء يوجد سلم ويسميه أهل القصر" بالسلوم" الذي من خلاله يمكن الصعود إلي الطابق العلوي، ويتراوح طول هذا السلم عادة بين 3.5م إلي 5م دون واق على الجانب. وبعد الصعود إلى الطابق العلوي "السكنة" وهي مكان أين يأكل وينام ويستريح أفراد الأسرة، وتنتظم هذه السكنة حول فناء وسطه مكشوف ، وفي أحد أركان هذا الفناء يوجد المطبخ بارتفاع 95سم وبعرض 1.20م.

تقنيات البناء:

إن نظام البناء و تقنياته في قصر" مغرار التحتاني" جاءت مثل ما جاءت عليه معظم قصور منطقة النعامة ، والتي تمثل نموذجا للعمارة الإسلامية القديمة حيث جمعت بين الجدران الرافعة كمحيط للمسكن ،حيث تبدو واضحة على جوانب المسكن وبين الأعمدة المركزية التي يقوم عليها سقف المسكن في الداخل. إن الجدران والأعمدة تقوم على أساس من الحجر الكبير وهي تقنية معروفة في المناطق شبه الصحراوية. بعد الانتهاء من بناء الجدران الرافعة والأعمدة ينتقل البناء إلى تسقيف المنزل، فغالبية أسقف المنازل تحتوي على عارضات يتراوح طولها ما بين 2م إلي 2.50م وهذا لكي لا تكون ذات مقاومة ضعيفة وتتأثر بثقل أفراد العائلة وأثاثهم.

- الأحياء و الشوارع: قصر مغرار التحتاني جهاز مترابط الأعضاء ووظائفه متكاملة .

الأحياء : وتسمى بالخطط أيضا، والحي أو الخطة وحدة سكنية يقطنها أناس ينحدرون في غالب الأحيان من قبيلة واحدة أو من عرق واحد وهي الشكل الذي تبدو عليه المدينة من خلال الشوارع، وينقسم قصر مغرار إلى أربعة أحياء، وكل حي يسكنه عرش واحد من الأعراش الأربعة المكونة للقصر، يتصل كل حي من الأحياء الأربعة بمركز القصر، بمجموعة

من الدروب أو الزقاق المسقفة منها وغير المسقفة لتنتهي عند الشارع الرئيس الذي يقود إلى وسط القصر أو إلى حي آخر.

الشوارع: أما شوارع القصر فتعتبر المسالك والطرق الأساسية في تشكيل هيكله، لأنها "بمثابة شريان القصر الذي يربط بين قلبه وبقية أطراف جسده فينظم بذلك حركته"[8]، ويلاحظ على شوارع القصر أنها ليست متصلة بعضها مع بعض ،كما أنها قصيرة من حيث الطول وجاءت كلها مسدودة بما ذلك الشوارع الثانوية و الدروب، ويبلغ عدد شوارع القصر 25 منها اثنان رئيسية واثنان ثانوية أما الباقي كله دروب، 10مغطاة والباقي مكشوف، إن عرض الشوارع يتراوح ما بين 2.5م و3م و الارتفاع أيضا بنفس القياس.

النبذة التاريخية :

قلعة الشيخ بوعمامة (مغرار التحتاني) سابقا .كلمة مغرار مكونة من كلمتين أو لغرار حذف اللام في بداية الكلمة للتخفيف وتسهيل النطق فأصبحت أمغرار –ولغرار هي أرض منخفضة بها أشجار البطم الكثيرة أو ما شابهها من أشجار، وقد تكون كلمة أمغرار دمجا لكلمتين عربيتين هما أم والغرار ما قر فيه أي حصل فيه السكن وأهل القرار هم أهل الحضر المستقرون في منازلهم خلاف أهل البدو. ومهما يكن فالتسمية عربية أطلقت عليها من طرف العرب ، والتحتاني صفة لهذه القرية لأن هناك مغرار الفوقاني تقع غربا على بعد 15 كلم في أعلى الوادي.

ونقرأ في تاريخ قلعة الشيخ بوعمامة أنه استقر بها الإنسان منذ ما قبل التاريخ ،على الأقل مع العصر الحجري الحديث "**Néolitihique** "، وهذا ما تثبته الرسومات الصخرية المتواجدة والتي حدد الخبراء تاريخها إلى 10000سنة قبل الميلاد ومن أهمها محطة "أم البرايم" أو "الصياد " التي خلدت في ورقة 1000دج ، وقد اكتشفت وسجلت هذه الرسومات من طرف الدكتور **jacqoutfleix** المرافق للنقيب **koch** (خلال حملة الجنرال "**cavainac**" على الصحراء الجزائرية في ماي 1874 بعد اكتشافه لرسومات تيوت[9] في 1847/04/25، وبعد ذلك رسومات بضواحي قصر مغرار التحتاني في 1847 ، واعتبر هذا الاكتشاف الأول في العالم لرسومات ما قبل التاريخ حيث لم تكن هذه الرسومات تثير اهتماما في أي مكان في العالم. والرسومات الصخرية بقصر مغرار التحتاني تحوي حيوانات

برية كالأسد ، وحيد القرن ، الفيل ، الغزال ، النعامة والزرافة أي كل حيوانات منطقة الصفانا الموجودة الآن في إفريقيا ،كما توجد صور للإنسان ورموز غريبة غير مفهومة[10].

قصر تيوت العتيق :

يقع قصر تيوت العتيق ببلدية تيوت على بعد 88 كلم جنوب ولاية النعامة وعن مقر دائرة العين الصفراء ب 18 كلم على الطريق الوطني رقم 47 الرابط بين بلديتي العين الصفراء وولاية البيض .شيد على الضفة اليمنى من واد تيوت في منحدر في الجهة الشمالية الغربية وتحديدا بين سفح جبل عيسى ووادي تيوت بجانب الواحة التي تمتد على مساحة 04 كلم ^{2}

يحده شمالا : مقبرة سيدي عيسى.

جنوبا وشرقا: واد تيوت وبساتين.

غربا : بساتين وأحياء حي مولاي عبد القادر.

يتميز قصر تيوت عن بقية القصور المجاورة بمناظره الخلابة المتمثلة في البساتين والواحة المحيطة به مما جعله يحظى بأهمية بالغة عن غيره. يحد القصر من الناحية الجنوبية أراضي زراعية ، أما من الناحية الشرقية والغربية والشمالية فهو امتداد لمدينة تيوت، وكغيره من القصور فقد بني المسجد في الوسط ، كما يحيط بالقصر مقابر وبنايات حديثة، مثل المسجد المجاور له في الجهة المقابلة .أما دروب القصر فأغلبها غير مغطاة وهذا ما جعلها أكثر إنارة .كان للموقع الجغرافي الذي شغله القصر أثر فعال انعكس بصورة واضحة على تصميمه ، فهو على شكل دائري غير منتظم متجه إلى الشمال كغيره من المدن الإسلامية الواقعة بالمناطق الحارة ، لاستقبال الرياح الشمالية المخففة لدرجة الحرارة ، ويتمركز في منطقة منخفضة تفاديا لبرودة الشتاء وشدة الرياح ،فحسب الروايات الشفهية فإن القصر بني بمساهمة جميع السكان وفقا نظام الجماعة ، الذي يعتمد تقاسم الأشغال بين أفراد المجموعة على ما يعرف عند أهل القصر بالتويزة ، فمن الأفراد من كلف بالحراسة والأمن والبعض كلف بجمع المواد التي تستعمل في التسقيف كالنخيل والعرعار، والبقية تقوم بصناعة وتحضير الطوب .

- المساكن:

يتكون قصر تيوت من خمسة أحياء سكنية وكل حي يمثل عائلة واحدة متجانسة، وفي هذا الموضوع ذكر عبد القادر حمزة كشك"...ان في المدينة الإسلامية يسكنه مجتمع متجانس

عادة، قليل العدد نسبيا تجمعهم وحدة الجوار العرفي أو الاجتماعي..." [11]، وتبدو المساكن للوهلة الأولى أنها تتكون من طابقين إلى ثلاث طوابق، وفي هذا الموضوع ذكر فليكس جاكو "...أن مساكن قصر تيوت تحتوي على طابق أرضي ، وآخر علوي واحد ، يتم الصعود إليه عبر سلم بني من الحجارة الكبيرة ، و أحيانا عبر جذع نخلة مائل مجوف..."، وتبدو أبواب المساكن بقصر تيوت غير متقابلة ، وتنعدم النوافذ في الطابق الأرضي سواء بالنسبة للمساكن ذات طابق واحد ، أو ذات طابقين ، باستثناء بعض الفتحات الصغيرة ، مربعة الشكل طول أضلاعها 0.4م، تقع على إرتفاع2.5م والتي تظهر بارزة في الجدران الخارجية للمساكن، بينما ذكر خالد عزب"...ومن خصوصية المدينة الإسلامية وهي التزام مساكن الأحياء بارتفاع يكاد يكون ثابت ماعدا المسجد..."[12] ،كما تبدو مساكن قصر تيوت ملتصقة وملتحمة مع بعضها البعض وتشترك من اثنين إلى ثلاث جهات تمتد على طول الشارع بشكل متسلسل ومتتابع ، ومنها ما تظهر في نهاية الأزقة مترابطة بواسطة الغرف التي تقع في الطابق العلوي.

تتشابه مساكن تيوت من حيث التخطيط غير المنتظم بسبب تصدع الأرضية، وكلها تحتوي على باب واحد، وانعدام النوافذ في الطابق الأرضي ، وبضخامة جدرانها الداخلية والخارجية ومغطاة بالطين.

إن مساكن تيوت تحتوي على أفنية، ولكنها تختلف من حيث موقعها من مسكن لآخر فهناك مساكن تشبه في تخطيطها الداخلي القصور الأموية مساكن القصبة ، وقصور الجنوب الجزائري، وبعض المساكن تشبه في تخطيطيها الداخلي قصور وقصبات المغرب الأقصى.

كما أن التفاوت الموجود بين آهالي القصر من الجانب الاقتصادي والاجتماعي، قد أثر على تخطيط المساكن، فقد ذكر جاكو فليكس "...أن مساكن الأشراف والأعيان في قصر تيوت بنيت قاعدتها من الحجارة، بينما مساكن الفقراء فقد بنيت من الطوب..."

- المواد المستعملة في البناء :

أغلب مساكن قصر تيوت بنيت بالطوب والقليل منها بني بالحجارة ، كما استعمل الطين بكميات كبيرة في البناء وفي كساء الأسقف وحسب نتائج الدراسات التي قام بها احد مكاتب الدراسات "إن كلمة الطين التي توجد بتيوت يمكن أن تزود وحدة بلاط ب 600 ألف طن سنويا وعلى مدى أربعين سنة وتتميز مادة الطين في تيوت بنوعية جيدة".[13]

أما صناعة الطوب في قصر تيوت فبعدما يجلب الطين من مكانه الأصلي الذي يسمى محليا ب"التيرس" ، يخلط بالرمل والتبن والماء ويترك لمدة يوم كي يخمر ، ومنه تصنع حبات الطوب الصلبة والتي تكون عادة مستطيلة الشكل طولها 0.3 م وعرضها ما بين 0.2 م و 0.1 م ، ثم يتم البناء بدءا بالأساسات على عمق 0.7 م تحت الأرض وعرض 0.7 م باستخدام الحجارة والبلاط الطيني ، ثم يتم كسوة الأساسيات بالطين ، ويستمر في بناء الجدران بالحجارة والطين على ارتفاع 1.5 م بالنسبة لمساكن الأعيان والأشراف ، بينما مساكن الفقراء تتم بالطوب لوحده ، ويستعمل البناء في وضع الطوب والطين باليد ولوحة مستطيلة الشكل لمعرفة إتزان الجدران وعندما يرتفع أكثر من 1.5 م تستخدم رافعة مصنوعة من خشب النخيل لكي يصعد البناء عليها.

نبذة تاريخيـــة :

بعد الفتح الإسلامي خاصة بعد تأسيس القصر ،المقصود من كلمة تيوت :في الأصل لفظ بربري ،مشتقة من "تيط" الذي يدل على العيون مثل اللفظ العربي ، هذا الإسم قريب من تيت ، أي واحة تيديكلت..."[14] كلمة تيوت هي في الأصل بربرية زناتية ، مشتقة من كلمة تيط أو تيطاوين ومعناها العيون أو المنطقة الغنية بمنابع المياه. وقد توصلت الأبحاث الهيدروجيولوجية الأخيرة إلى أن منطقة تيوت تعد خزانا للمياه الجوفية ،حسب ما ذكره مولاي بلحميسى عن الرحلة العياشية المغربية في القرن 17م "وجدت هذه الأودية، ولولاها لما وجدت هذه القصور، فهي كثيرة المياه في الشتاء و قليلة في الصيف".[15]

توجد هضبة تعلوها صخرة سوداء هي الشاهد الوحيد الذي يروي لنا أسرار هذه المنطقة، الذي كان مقر القصر الأول ويدعى قصر الأحلاف نسبة لساكنيه "الأحلاف "وهم عرب معقل الذين هاجروا من تلمسان إلى تيوت في نهاية القرن 14 م عقب وفاة الملك الزياني أبو حمو موسى الثاني والذين كانوا من حلفائه.

غير بعيد عن الهضبة توجد بعض المقابر المتناثرة، كل هذا في الضفة اليسرى لواد تيوت. وفي الجهة المقابلة لقصر الأحلاف الذي لم تبق منه سوى الآثار التي هي عبارة عن أساسات وبعض بقايا الجدران الخارجية، ويقع قصر تيوت على الضفة اليمنى من وادي تيوت ، وقد قام بتأسيس هذا القصر أولاد رحمون القادمون من الساقية الحمراء ووادي الذهب ما بين 1200م أو 1390 م حسب ما ذكره احد رينيه.

والراجح أن قصر تيوت تأسس في القرن 15 م بعد هجرة عرب الأندلس وسقوط غرناطة في 1492حسب أحد الباحثين، وذكر روي أنه جاء عيسى بن عبد الله وهو الجد الأول لأولاد رحو القادم من الجنوب واستقبلوا من قبل أولاد رحمون[16].

أما الأحلاف استقبلوا الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف الذي بدوره نصح سيدي عبد الله بالاستقرار بالمنطقة والعمل على توحيد قبائلها وقد تمكن من ذلك ،فعرف القصر حينها تطورا ونماءً خلال القرن 15 م كما شهد توافد الكثير من العائلات المغربية ومن بدو المنطقة وآخرين.

الأهمية التاريخية:

إن موقع قصر تيوت العتيق الذي جعله يتوسط قصور منطقة النعامة (قصر عسلة ومغرار الفوقاني وقلعة الشيخ بوعمامة من الجهة الشمالية الشرقية والغربية على التوالي ، وقصر عين الصفراء وصفيصيفة من الجهة الغربية، ومن جهة ثانية ينتمي إلى مجموعة القصور أو القصبات المحاذية للجزء الغربي من الأطلس الصحراوي في الجزائر، جعله بمثابة إحدى الحلقات الهامة غير القابلة للانفصام في صياغة مسار تاريخ هذه المنطقة .

كما تحيط بالقصر مواقع أثرية عدة تؤكد تواجد الإنسان القديم منذ العصر الحجري الحديث بواد تيوت وكذا الحيوانات التي اندثرت اليوم وذلك من خلال الحيثيات والبقايا والرسومات الصخرية .

كما تدل المواقع الأثرية المتناثرة على محيط هذه المنطقة الرطبة والتجمعات السكانية الحالية على ارتباط الإنسان منذ القديم بواد تيوت. أما بجوار السد الذي يتوسط المدينة، توجد غابة متحجرة ،إضافة إلى الصخور المنقوشة حيث ذكر رينيه بخصوص ذلك ما يلي "بعد مغادرة عين الصفراء ورمالها يقطع المسافر عشرات الكيلومترات في اتجاه الشرق، يصادف فجأة بعض أشجار النخيل وعندما يقترب ، يتضح المنظر جيدا ، تظهر الأشجار بكثرة، وعند وصوله إلى تيوت ، يظهر التناقض واضحا ورائقا في نفس الوقت بين بساتين النخيل الخضراء واللون الأحمر للصخور والأرض واللون الأبيض للقباب والنباتات الوفيرة في وسط سهل رطب يمتد في اتجاه الشمال الشرقي" ،ويبدو سيئا عندما تقترب منه ،كما بني من أعلى إلى أسفل.

/ متحف القصر العتيق الصفيصفة :

يحتوي المتحف على غرفة كبيرة الحجم طول مساحتها 10.98 م وعرضها 3.90م بها بابان طول الباب الأول 1.80 م وعرضه 83 سم وطول الباب الثاني 2.10 م وعرضه 75 سم ، جدران الغرفة مبنية من المواد الأولية للطين والحجارة ملبسة بالطين ومادة بيضاء إسمنتية .

سقف الغرفة مصنوع من خشب شجرة العرعار والقصب الطبيعي والحلفاء والطين ، بها نافذتان خشبيتان طولها 1.30 م وعرضها 1.18 م والنافذة الثانية طولها 55 سم وعرضها 40 سم ، أرضية الغرفة مفروشة بالأحجار المصفحة والإسمنت المسلح، ومن الغرفة الكبيرة في الأعلى 04 درجات إلى الأعلى بها ساحة على شكل شريط مربع طول مساحته 10.98 م وعرضه 9 م .

يحتوي المتحف على 02 مراحيض طولها 1.65 م وعرضها 90 م، ويحتوي كذلك على السلم الموجود في وسط الساحة في الطابق الأرضي والذي يؤدي إلى الطابق العلوي.

/ المتحف الثقافي الأثري :

الباب الرئيسي للمتحف خشبي طوله 2.15 م وعرضه 1.40 م، ومن باب المدخل نجد ممرا ضيقا طوله 2.10 م وعرضه 2.56 م.

يحتوي المتحف على الطابق الأرضي على مساحة طولها 9 م وعرضها 4.50 م يتوسطها عمودان مبنيان بالحجارة والطين ،وملبسان بمادة الطين ومادة بيضاء من الإسمنت .ويحتوي الطابق على بئر للمياه تقليدي مغطى عرضه 1.20 م، ويحتوي المتحف على غرف طولها 4.90 م وعرضها 2 م في مدخلها باب خشبي عادي طوله 1.70 م وعرضه 73 سم جدرانها مبنية بالمواد الأولية من الطين والحجارة ملبسة بالطين ومادة إسمنتية بيضاء وأما سقف الغرفة فيحتوي على أعمدة من شجر العرعار البري والقصب والحلفاء والطين وأرضية الغرفة الأولى مفروشة بالحجارة المصفحة والإسمنت المسلح وتحتوي على نافذة خشبية طولها 94 سم وعرضها 88 سم .

الغرفة الثالثة باب خشبي طوله 1.80 م وعرضه 64 سم والغرفة الثالثة في الساحة الأرضية في الطابق الأرضي متن متحف طول مساحتها 9.30 م وعرضها 3.48 م يتوسطها 04 أعمدة مبنية بالحجارة والطين ملبسة بمادة بيضاء إسمنتية فيها بابان فالباب الأول طوله

2م وعرضه 79 سم والباب الثاني 2 م وعرضه 79 سم جدرانها مبنية بالطين وملبسة بمادة من الطين ومادة أولية بيضاء سقفها مسقف بأعمدة من شجرة العرعار البربرية والقصب الطبيعي والحلفاء والطين والأرضية مفروشة بالحجر المصفح والإسمنت بين جوانبه كما يوجد باب يفصل بين الغرفتين الثالثة والرابعة طوله 2 م وعرضه 94 سم .

الغرفة الرابعة في الساحة الأرضية في الطابق الأرضي من المتحف في مدخلها باب طوله 2.10 م وعرضه80 سم مساحة الغرفة طولها 3.85 م وعرضها 4.08 م جدرانها مبنية بالحجارة والطين ملبسة بمادة من الطين ومادة أولية بيضاء ، سقفها مسقف بأعمدة من شجرة العرعار البرية والقصب والحلفاء والطين والأرضية مفروشة بالحجارة، المصفحة والإسمنت ، وتحتوي على نافذة كبيرة الحجم طولها 73 سم وعرضها 1.10 م ونوافذ صغيرة الحجم عددها 02 طولها 35 سم وعرضها 30 سم ، وهذه الغرفة يوجد باب ثان يؤدي إلى الساحة طولها مساحتها 6.50 م وعرضها 4 م.

الخاتمة :

لقد أمر الإسلام بتعمير الأرض بالبناء عليها، وحث عليه لحماية الانسان من حر الشمس وبرد الشتاء وأمطاره، وجعل اتخاد المساكن نعمة من الله لمخلوقاته. قال تعالى: "والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم طعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلي حين"

تأثر التخطيط العمراني بالبيئة المحلية ، وباستغلال المواد الموجودة في المنطقة كالحجارة والطين والنخيل وأشجار العرعار والقرناف ، واستطاع المعماري التكيف مع المناخ السائد في المنطقة ، كلما توفرت شروط الاستقرار التي لمح إليها ابن خلدون وهي المنابع والموقع الحصين.

ورغم مضي قرون من تشيد هذه العناصر المعمارية ، فهي مازالت الشاهد الحي لذاكرتنا التاريخية، وهويتنا الوطنية الأصلية أصالة أمجادنا وأبطالنا عبر التاريخ.

الهوامش:

[1]- Bonvalet Segaud. c,Brun,J ,Logement et habitat l'état des savoirs, Paris, ed la decouverte,1998.

[2] **القصير عبد القادر: أحياء الصفيح ،دار النهضة العربية، بيروت 1993.**

[3] **التراث الثقافي: مديرية الثقافة، بطاقة تقنية للمسكن التقليدي لولاية النعامة، دون نشر، دون طبع، أوت 2014.**

[4] **جمع قصور: مجموعة من البيوت المبنية من مواد مكونة من الجص والتربة ، قرب منابع مائية وهي معروفة حالية بالصحراء الجزائرية خاصة منطقة الواحات والقصور المذكورة هنا على قصور الهضاب.**

ينظر إلي: Grand Dictionnaire Encyclopedique –larousse T 7 -1984

[5] - Hensier © territoireMilitaired'ainSefra (Sudoranais) , Exposé de situation Géographique et Administrative. Société et Finance de 1906 a 1912 BSGOT34- 1914,.

[6] **روسي (إيتوري) : طرابلس تحت حكم الاسبان و فرسان مالطة ترجمة و تقديم خليفة محمد التليسي، ط2، طرابلس 1985 .**

[7] **أحمد إبراهيم حسن : مدينة الكويت ،مجلة المنهل العدد 454 المجلد 48 ماي / جوان1987**

[8] **إبراهيم بن يوسف: إشكالية العمران والمشروع الإسلامي، مطبعة أبو داوود ، 1992.**

[9] - Felix Jaquot :Expédition du général cavignac dans le sahara algriénne en avril et mai 1847 paris gide et baudrey 1847.

[10] **قوراري عيسى: قصر تيوت دراسة أثرية ومعمارية، رسالة ماجيستير، جامعة تلمسان، قسم ثقافة شعبية، 2000- 2001.**

[11] **د.عبد القادر حمزة كشك: المنهج الإسلامي في تصميم العمارة ،المنهل.**

[12] **خالد عزب: الأحياء السكنية بالمدينة الإسلامية ، المنهل.**

[13] - Reynier : tiout (sud-oranais) : Etude geographique et historique et ,Institut de Pasteur ,Alger1954 .

[14] **مولاي بلحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1981.**

[15] - F.Cominardi :Monographie de tiout soualah .